اللغة العربة والثقافة

- قراءة في الذاكرة الجزائرية -

شكلت اللغة على الدّوام عاملا مهما في صياغة هويّة الأمة، وكيانها الخاص الذي يميّزها عن غيرها من الأمم، لما تحمله عن أبعاد فكرية واجتماعية وحضارية . ولما كانت الأمة العربية مجيدة بتاريخها وتراثها؛ فقد كان للغتها الدور الفاعل في حفظ هذا الزخم الفكري والثقافي، بوصفها **" ذاكرة الأمة وخزّان تراثها، ومفهوماتها وقيمها، وهي وسيلة مهمة في تطور الأمة، وتجديد كيانها المعاصر من خلال استفادتها من تجارب الأمم الأخرى ، وإقامتها الحوار البنّاء مع الحضارات، وتفاعلها معها دون تفريط بشخصيتها المميزة." (1)** فاللغة العربية لم تكن يوما منغلقة على ذاتها، فقد نقلت العلوم وحفظت الحضارة، وعبرت عن أفراح الشاعر وأحزانه، ما جعل ارتباط العربي بلغته وتعلقه بتراثه كثيرا ما يأخذ أبعادا روحية ونفسية.

1- إسهامات المبدعين في الحفاظ على اللغة العربية وهوية الأمة:

عبرت اللغة في الجزائر عن إرث ثقافي عريق ومتنوع، تنوع ثقافة هذه الأمة، واتساع رقعة هذا البلد القارة، الذي تتجاذبه أربعة أنساق لغوية تتعايش في مجتمع يطبعه الثراء الثقافي؛ حيث توجد الفصحى إلى جانب الأمازيغية بتفرعاتها، وكذا العامية - التي تستمد رصيدها تارة من الفصحى وأخرى من الأمازيغية أو الفرنسية دون إغفال بعض الرواسب التركية - إضافة إلى اللغة الفرنسية / لغة المستعمر، التي ظلت تحتل حيّزا معتبرا من التعاملات الفردية والاجتماعية وحتى الإبداعية.

يأتي دور المبدع الجزائري اليوم استمرارا لدوره النضالي بالأمس القريب، في حربه التحريرية وسعيه للتصدي لمحاولات الطمس الاستعماري للهوية الجزائرية، ومحاربته للغة العربية، بوصفها لغة القرآن، والعروبة التي ينتسب إليها ؛ إذ **" أراد المحتل أن يمحو الشخصية الوطنية الجزائرية، ويعزلها عن أصولها، فجنّد كل الطاقات لتشويه ماضي الجزائر التليد، وطمس معالمه، والعمل على تجريد الشعب من كل مقوماته الأساسية، فحارب اللغة، لأنّها العامل الموحد والمحرر، ولأنّها أيضا السلاح الفكري الفعال في ميدان الصراع بين الأصالة الراسخة من جهة، وبين عمليات المسخ التي قام بها الاستعمار من جهة ثانية." (2)** فكان دور مفكري الجزائر ومبدعيها، وعلى رأسهم جمعية العلماء المسلمين دورا رياديا ؛ حيث أسست ما يقارب أربعمائة مدرسة عربية، تدرس علوم اللغة العربية ، ومبادئ الفقه الإسلامي ، إضافة إلى ما كانت تقوم به من أعمال التوعية . فقد أسهمت الجهود المتضافرة في إحباط كل محاولات المسخ الاستعماري ومن ثم الحفاظ على عناصر الهوية الجزائرية.

ما تواجهه الجزائر اليوم - على غرار باقي الدول العربية - لا يقل خطرا عن حربهم ضد الممارسات الاستعمارية المحاربة للثقافة الوطنية. فالمعركة اليوم أكثر شراسة من معركة التحرير؛ هي مواجهة العولمة الحديثة، وما تفرضه سطوة الآخر المتقدم بثقافته وحضارته ، من محاولات لإذابة الفوارق الثقافية، والقومية بين الأمم، لاسيما تلك التي شهدت هيمنة استعمارية طويلة على غرار الجزائر؛ إذ **" ليس**

هناك ما هو أخطر على ثقافتنا وإنسانيتنا عامة من الدعوة إلى الاستسلام لهذه العولمة والهيمنة الرأسمالية باعتبارها قدرا لا فكاك منه تاريخيا. وبالتالي الدعوة حتمية للاندماج أو التكيّف الهيكلي معها دون تحفظ أو مراعاة للخصوصيات، والهويات الثقافية والمصالح القومية. " (3) فكل ما يشكل خصوصية وتميزا لأمة ما مستهدف اليوم، في معركة تعددت أسلحتها وتنوعت، هدفها الرئيسي هو ضرب إرثها الثقافي والحضاري ومن ثم السيطرة على الثروات والممتلكات.

تجلى حضور المبدعين الجزائريين والأدباء عبر أعمال مختلفة، حاولوا من خلالها رسم خطوط تعبر بصدق عن واقع المجتمع الجزائري، وثقافته العربية الإسلامية. وفق ما توفّر من منابر إعلامية - في الفترات التي تلت الاستقلال - نحو مجلتي " **الثقافة والآمال** " اللتان كانتا تصدران عن وزارة الثقافة. إضافة إلى بعض المجالات الصادرة عن جبهة التحرير الوطني، التي سجلت حضورا أدبيا لافتا لقامات إبداعية كبيرة يمكن أن نذكر منها: عبد الحميد بن هدوقة ، الطاهر وطار، مالك حداد ، مالك بن نبي ...

فإذا كان لواء الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية قد حمله ثلة من كبار الكتاب مثل: **مولود فرعون، مولود معمري ، وكاتب ياسين ، ومحمد ديب ، ورشيد ميموني ...** فإنّ نظيره المكتوب باللغة العربية قد اشتهر به أيضا كوكبة من رواد الأدب في الجزائر منهم: **أحمد رضا حوحو، عبد الحميد بن هدوقة ، جميلة زنير ، زهور ونيسي ، رشيد بوجدرة ، أحلام مستغانمي ، الطاهر وطار ...**

ظل المثقف الجزائري في صراع من أجل إثبات الذات وخلق التميّز، من خلال حضور لافت عبر أعمال أدبية مختلفة، ما فتئت تثبت نفسها وتسجل حضورها، سواء داخل الوطن أو خارجه ؛ إذ لم يخف هؤلاء تعلقهم بكل ما يعبر عن ثقافة وطنهم ، ويثبت تمسكهم بإرثهم العريق العربي الأمازيغي، مع سعيهم الحثيث للتقريب بين اللغة الفردية الإبداعية، وتلك اللغة الاجتماعية باعتبار أن **" اللغة الفردية تعبر عن نفس المشاعر والحدوس، التي يستشعر المبدع ضرورة بلورتها في كلمات جديدة مغايرة للغة السائدة والمألوفة، وقد تعبّر عن الهامش المقموع الذي لا يجد نفسه في القاموس المتداول ... واللغة الاجتماعية هي التي تبرز على مستوى صياغة الخطابات المؤطرة للمجتمع وإيديولوجياته وتوجهاته الفكرية والثقافية ... اللغة الفردية الاجتماعية تستفيد من اللغات الاجتماعية ... بل إنّ بعض الروائيين يحكون ضمن نصوصهم تاريخ لغات اجتماعية، ويسعون في الآن نفسه إلى مجاوزتها. " (4)** فغاية المبدع اليوم هو لغة حداثية بإمكانها أن تخرج هذا الأدب من عزلته الثقافية والحضارية.

لعل أبلغ مثال يمكن الاستدلال به على تعلق الأديب الجزائري باللغة العربية - الذي يصل إلى درجة العشق أحيانا- ما أقدمت عليه الروائية والشاعرة الجزائرية " **أحلام مستغانمي** " بخوضها مغامرة الكتابة الروائية باللغة العربية، والأبلغ من ذلك حينما تهدي روايتها الأولى " **ذاكرة الجسد** " إلى مواطنها الكاتب " **مالك حداد** " فتقول: **" إلى مالك حداد ... ابن قسنطينة الذي أقسم بعد استقلال الجزائر ألا يكتب بلغة ليست لغته ... فاغتالته الصفحة البيضاء ... ومات متأثرا بسلطان صمته ليصبح شهيد اللغة العربية ، وأوّل كاتب قرر أن يموت صمتا وقهرا وعشقا لها." (5)** فقد أفضى حب الوطن ، وكل ما يحيل عليه من مكونات للهوية الجزائرية عند أديبتنا إلى هذا العناق الشديد والحميمية، بين مدينة " قسنطينة " بما تحمله من ثراء ثقافي ولغة شعرية حبلى بعلامات التفرد والإبداع.

إنّ الموقف الأهم الذي يفرض نفسه بإلحاح في الجزائر، هو ضرورة تطوير اللغة العربية بشكل تواكب فيه إيقاع العصر، سواء على الصعيد الإبداعي، أو حتى العلمي التواصلي **" خاصة وأن بعض التصورات الأصولية الدينية عن اللغة قد عرقلت التجديد المطلوب بحجة الحرص على صون قداسة لغة**

القرآن والحفاظ على نقائها ، لكن على رغم ذلك أسهمت النصوص الشعرية القصصية والروائية المسرحية في خلخلة التقديس الاستسلافي للغة ، وأعطت الأسبقية للتعبير عن الملموسات المستجدة ، وعن ما يكون عصب التواصل والتعلم وتعميق المعرفة " (6) ؛ لذلك ينبغي علينا الانطلاق من الناشئة ، بغرس هذه اللغة في تكوينهم حتى يشبون عليها. لكن في الوقت ذاته نحن مطالبون بتطوير آليات البحث ، ودعم المصطلح العربي وتوظيف هذه اللغة في وسائل البرمجة الحديثة ، في ذلك الوقت فقط يكون بإمكاننا الانفتاح على الآخر الذي يزحف بكل ثقله ليجعلنا صورة ثانية له ، فنكون قادرين على التأثر به دون أن تتماهى ذاتنا فيه ، وتزول الحدود والفوارق التي تفصل تراثنا وثقافتنا العربية الإسلامية عن ثقافته؛ حيث **" تبدو الأعمال الأدبية للمهتمين بالنسبة للآخر الأوربي المتعالي ، وصاحب المركزية بكل شيء مناهضة ، ومقاومة لإثبات هويتها والتمسك بها ، بل تقويتها في هذا الآخر الذي لا يرى في المرآة غير هويته. " (7)** هذا ما يبرر الحضور اللافت والمميّز لجملة من الأعمال الأدبية - خاصة الروائية منها - لأقلام جزائرية مثل: **" أحلام مستغانمي "** و **" وسيني الأعرج "** ؛ حيث استطاعت أن تحافظ على الهوية الجزائرية، وتبرز خصوصية هذه الثقافة التي قدّر لها الاستمرار والبقاء بفضل ما بذل من جهود.

أدرك المثقفون الجزائريون كبر التحديات التي تواجههم، فدورهم اليوم نضالي كالبارحة ، فبادروا إلى المساهمة في بناء مجتمعهم ، من خلال نشر ثقافة السلم والانفتاح على العالم دون الذوبان فيه ، وكذا إسماع هذا الآخر صوت المجتمع الجزائر بكل ما يحويه من زخم ثقافي ، تشكّل عبر حقب تاريخية مختلفة فأسهم في تشكيل فسيفساء هي خليقة اليوم بأن تقدم صورة نيّرة تضيء المحافل الدولية ، وتقدم انطباعا جيدا عن أمة تأمل الأفضل رغم النقائص والعراقيل، وحتى المشاكل التي لا تخلوا منها بيئة عربية أو أجنبية.

2 ـ الوسائل الموظفة للحفاظ على التراث واللغة العربة:

التراث الثقافي الجزائري تراث غزير ومتنوع ، يجمع بين العديد من الفنون الشعبية، وكذا الأعمال الشعرية التي تتلوّن بين الملحون والفصيح حتى يمكننا القول إن **" الفنون الشعبية الجزائرية كالغناء والموسيقى والرقص والأساطير الشعبية من الثراء والتنوع؛ بحيث تستطيع أن تنافس أرقى الفنون الشعبية في العالم. والصناعات التقليدية الجزائرية فخارية أم معدنية أم غيرها، تتمتع بسمعة عالمية عالية. والشعر الجزائري الملحون ينافس بغناه وتنوعه الشعر الفصيح ، فالجزائر إذن ليست فقيرة في الفنون التي تعبر عن شخصيتها العربية الإسلامية ، بل على العكس أنها من أغلى البلدان العربية المثقفة في هذه الفنون. " (8)** سعت الدولة الجزائرية من خلال الوزارات الوصية، وكذا الهيئات والجمعيات؛ لاحتضان كثير من المواهب، سواء من ناحية النشر، أو الندوات التي تقام من حين لآخر، نحو ما قامت به وتقوم الجاحظية التي أسسها شيخ الروائيين " الطاهر وطار" عام 1989 ؛ حيث لا تنتهي فعاليات هذه الجمعية التي تسهم أيضا في تنشيط المسرح الجزائري ، بغية إعطائه شخصية مميزة عبر ما يقدمه من أعمال جادة تتناول الواقع المعيش بمختلف قضاياه ، بما يحافظ على الهوية الجزائرية.

كان التراث الثقافي الجزائري في كثير من الأوقات مصدرا للإبداع والتميّز، هو ما حذا بالهيئات المسؤولة ، وحتى المبدعين والمثقفين أنفسهم إلى جمع وتحقيق هذا التراث، ففي كل مرة تطالعنا دور الثقافة وحتى الجامعات بعقد ندوات فكرية وثقافية ، بغية النقاش وتقريب وجهات النظر، وأخذ التدابير المناسبة خدمة للبلد ولثقافته، مع العلم أن **" الفراغ الثقافي الذي وجدت عليه الجزائر غداة استقلالها كان هائلا**

والآثار الاستعمارية التي خلفها الاستعمار في العقول ، وفي غير العقول كانت من السعة العمق؛ بحيث لا يكفي في محوها والقضاء عليها غير عمل الجماهير الجزائرية ... وهذا ما جعل مسؤولي التربية الوطنية في بلادنا يحاولون الجمع بين الاتجاه العلمي، والمحافظة على الثقافة الوطنية، ويسمح لبلادنا بمواصلة مسيرتها الثورية في ثقة ونجاح . " (9) فالعملية لم تكن أبدا سهلة ، فقد شرعت الدولة الجزائرية في العمل على مستوى مؤسساتها العليا، للحفاظ على اللغة العربية في المجتمع الجزائري ، وترقية استعمالها.

ظهرت عناية الدولة الجزائرية باللغة العربية أيضا، من خلال إنشاء هيئات متخصصة مثل: " **مجمع اللغة العربية** "سنة 1986، و" **المجلس الأعلى للغة العربية** "سنة 1996 ، هدفها الحفاظ على اللغة العربية وآدابها ، وكذا الاهتمام بمواكبة مستحدثات اللغة ، قصد وضع برامج من شأنها تطوير اللغة العربية بصورة تجعلها تواكب التطور الحاصل في العالم ، والاستفادة من خبرات الدول الأخرى ، والهيئات اللغوية المماثلة فيها.

كما تسهر الدولة على الإشراف العلمي على مشاريع وطنية، وقومية تخص اللغة العربية ، عبر دعمها بمختلف الوسائل المادية والبشرية التي من شأنها حفظ التراث الوطني، وتوريثه للأجيال القادمة كي تعرف ماضيها وثقافتها ، وكل ما يحتويه تراثها من عناصر مادية، وتقاليد تحمل أبعادا فكرية تدخل في تكوين الهوية الوطنية ، وتقدير الجهود التي بذلت لحفظ هذا التراث وحمايته. فالهدف كبير غايته الوقوف على معالم الشخصية الوطنية في ظل تسارع التطورات في العالم ، وما تفرضه وسائل الاتصال الحديثة من سيطرة للآخر المتقدم وثقافته.

3- دور التظاهرات الثقافية والملتقيات العلمية في الحفاظ على اللغة العربية:

تسعى الجزائر اليوم إلى الحضور الفاعل والمؤثر في مختلف المناسبات العربية والعالمية، من خلال محاولتها إحداثها التغيير في مختلف المجالات، أملا في بناء مجتمع مثقف يؤثر في الخطاب الأدبي ويدفعه إلى الحراك والمنافسة.

كما تأمل في إخراج الجزائر من عزلتها، وإيصال صوتها وثقافتها إلى كل المحافل الدولية، وإقناع الآخر بعراقة ثقافة وتاريخ هذا البلد، خاصة بعد الظروف القاسية والحصار الذي وقفت وراءه معطيات العشرية السوداء ، التي اغتصبت من هذا الشعب حقه في الحياة ، والتطلع إلى غد أفضل.

لعل تظاهرة الجزائر عاصمة للثقافة العربية ، التي احتضنتها العاصمة سنة 2007 كانت المحطة الكبيرة التي انطلقت منها الجزائر لتنفتح على العالم، بعد عودة الاستقرار إلى هذا البلد، لتكتب صفحة جديدة عن تراثها الثقافي والحضاري ، وتنفض عنه غبار السنين الأليمة ؛ وتتصالح مع ذاتها ، ثم مع غيرها من الدول العربية. فقد عكفت الوزارة الوصية على طبع أكثر من 1001 كتاب خلال سنة واحدة في مجالات ثقافية وإبداعية مختلفة ، في القصة ، والشعر، والمسرح ، والنقد ، وأدب الأطفال ، وكتب التاريخ، التي تتناول سير ذاتية لمجاهدين أشاوس ، حفظوا لهذا الوطن عزّته ، واسترجعوا استقلاله .

إضافة إلى عرض أكثر من 45 مسرحية ، وإنجاز 12 فيلم سينمائي جديد ، كما تم تنظيم أسابيع ثقافية عربية بغرض تقريب الثقافات العربية من الجمهور الجزائري ، وكذا تعريف هذه الدول بالثقافة الوطنية؛ حيث كانت شوارع العاصمة في كثير من الأحيان مسرحا كبيرا لاحتضان تلك العروض والثقافات.

كما تم افتتاح قاعات للعرض نحو قاعة الأطلس بطاقة استيعابية 300 كرسي ، لكن هذا لا ينفي وجود العديد من النقائص والمشاريع التي لم تر النور بعد.

كما يعد معرض الجزائر الدولي للكتاب تظاهرة ثقافية كبيرة بامتياز، تحرص بلادنا على احتضانها سنويا وبصفة دورية ؛ حيث يسجل الكتاب العربي حضوره الدائم - رغم مزاحمة الكتاب الفرنسي له - ناهيك عما يعقد على هامشه من ندوات فكرية وثقافية ، من شأنها دعم الحوار الثقافي البنّاء من جهة والتواصل المباشر بين بعض المبدعين والمثقف العربي من خلال اللقاءات المباشرة من جهة ثانية.

كما تسهم بعض الملتقيات الدورية ذات الطابع الثقافي في خدمة القطاع ، وكذا في تنشيط الإبداع واللغة العربية ، وهو ما يشي بالدور الكبير والفعال لهذه الملتقيات نحو : الملتقى الوطني للشعر الفصيح سنة 2009 والذي وسم قضايا المجتمع والتراث في المجتمع الجزائري ، أما موضوعه في 2010 فهو مسألة الهوية في الشعر الجزائري

أما في سنة 2011 وتزامنا مع " **تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية** " فقد اختير أن يكون عنوانه " توظيف الثقافة الإسلامية في الشعر العربي المعاصر ، هذه الملتقيات التي احتضنتها ولاية " واد سوف "

أما التراث الشعبي هذه التركيبة المتداخلة في التراث الثقافي الوطني، هي شاهد آخر على عظمة هذه الأمة وعمق أصلتها، فهناك العديد من المحاولات لتدوينه ، وحفظ ما أمكن منه، باعتباره حافظا للملامح العامة للمجتمع ، والصورة العفوية التي تعكس بساطة هذا الشعب ، وتعبر عن آماله وآلامه ؛ لذا فهو الصورة الصادقة التي لم تزينها يد فنان ، فجاء فطرية وعلى السليقة **" إنّ المميزات الثقافية والمكونات المعرفية والدينية هي نوع من التصنيفات الاجتماعية، فإنّ هذا يعني في الوقت نفسه أنّ الهوية الثقافية هي نوع من الهوية الاجتماعية ؛ إذ تنطلق من التصنيف الثقافي للجماعة. ويمكن أن تكون متبدلة في جانب منها ثابتة في جانب آخر، كما تكون أيضا متكونة من عدد من المكونات التاريخية أو الدينية أو المعاصرة " (10)** فإذا كانت اللغة عنصرا مشتركا بين أفراد المجتمع، ومحورا يلتفون حوله؛ فإننا نسجل بعض محاولات الإقصاء في جملة من المجالات ، ما لم نسع لتطوير هذه اللغة وجعلها أداة للفكر والبحث العلمي.

يبقى أمل الجزائريين كبيرا في أن تحظى اللغة العربية باهتمام أكبر من طرف الهيئات المعنية وأن يتسع نطاق استعمالها ، لتكون – كما كانت بالأمس – لغة فكر وأدب وعلم ، حتى يستطيع ناطقوها مواجهة مختلف التحديات المعاصرة ، ولما لا أن تفرض نفسها كهوية ثقافية عربية وإسلامية.

الإحالات والهوامش:

(1) أحمد دهمان . اللغة العربية الصلة الحية بين حاضر الأمة وتراثها ، مجلة التراث العربي ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2006 ، ع 1، 2 ، ص 90 .

(2) عبد الرحمن سلامة . التعريب في الجزائر ، د ط ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الرغاية الجزائر، 1981، ص 15.

(3) محمود أمين العالم . العولمة والهوية الثقافية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1998 ، ص 382.

(4) محمد برادة . الرواية ذاكرة مفتوحة ، ط 1 ، آفاق للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2008 ، ص 117.

(5) ينظر: غلاف رواية أحلام مستغانمي " ذاكرة الجسد " (بقلم نزار قباني لندن 1995) ، ط 5 ، 1998.

(6) محمد برادة . الرواية ذاكرة مفتوحة ، ص 51.

(7) أحمد السليماني ، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر ، ط 1 ، دار الزمان للطباعة والنشر ، دمشق سوريا ، 2009 ، ص 408 .

(8) محمد مصايف . دراسات في النقد والأدب ، ط 1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1998 ، ص 197.

(9) المرجع نفسه ، ص 198.

(10)إبراهيم محمد الشتيوي . أبحاث في الهوية دراسة في الرواية العربية ، ط 1 ، دار شرقيات ، القاهرة ، 2010، ص 11.